الايديولوجيا و علم الاجتماع في الوطن العربي

الإيديولوجيا و ميلاد علم الاجتماع:

إذا كان الإيطاليون يزعمون أن" **فيكو** "هو مؤسس علم الاجتماع، و إذا كان البلجيكيون يدعون أن **كتليه** "هو أول من استخدم تسمية الفيزياء الاجتماعية ليشير بها إلى العلم الجديد، و إذا كان الفرنسيون يدعون أن "**كونت** " هو مؤسس علم الاجتماع بلا منازع، فإن التاريخ يشهد بأن هناك مفكر عربي ظهر قبل هؤلاء جميعا بنحو خمسة قرون، استطاع أن يقيم صرح هذا العلم على أسس منهجية سليمة، فعرفه وحددموضوعه و منهجه، و راح يدرس مسائله و يستنبط قوانينه، ذلك هو" **عبد الرحمان ابن خلدون.**"

1-الإيديولوجيا في أعمال عبد الرحمن ابن خلدون:

أدرك" **ابن خلدون** "منذ بدء مقدمته أنه يقوم بمحاولة غير مسبوق إليها و هي تأسيس علم الاجتماع، أو ما سماه بعلم العمران البشري أو الاجتماعي الإنساني ، فلقد فطن" **ابن خلدون** "إلى أن هناك طائفة من الظواهر لا تنتمي إلى العلوم المادية، و لكنها تنتمي إلى الاجتماع الإنساني وحده، و أنها تنشأ عن هذا الاجتماع بحكم طبيعته لا بأي مصدر خارج عن الاجتماع، و قد أطلق عليها اسم" واقعات العمران البشري"، كما أدرك أهم خصائصها، و هي أنها حتمية، وأنها خارجة عن شعور الفرد، و أنها ذات قوة قاهرة، و أنها تنشأ عن طبيعة الاجتماع الإنساني، و أنها قوالب للتفكير و السلوك و العمل.

اعتمد" **ابن خلدون** "في دراسته للمجتمعات العربية و البربرية على:

- ملاحظة الظواهر الاجتماعية في المجتمعات التي زارها و عاش بين أهلها .
- تعقب الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها، و لكن في العصور السابقة لعصره .
- تعقب أشباهها و نظائرها في تاريخ شعوب أخرى لم يتح له الاحتكاك بها و لا الحياة بين أهلها
- المقارنة بين هذه الظواهر جميعا و التأمل في مختلف شؤونها، للوقوف على خصائصها و ما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد و المجتمعات، و علل اختلافها، و قوانين تطورها.
- استخلاص القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر .

و هكذا يتضح أن" **ابن خلدون** "قد أقام منهجه العلمي على الملاحظة، المقارنة، التأصيل التاريخي، ثم عمليات عقلية يجريها على المادة العلمية المتوصل إليها، فيحللها و يفسرها، و يصل بصددها إلى القوانينالتي تحكم الظواهر الاجتماعية.

من القضايا المميزة التي اهتم" **ابن خلدون** "بمعالجتها، المراحل التطورية للدول و الحضارات الإنسانية، فيما يعرف بنظرية" الدورة التاريخية" "**لابن خلدون**"، و تحليله لنشأة السلطة و تطورها، وأثر ذلك على طبيعة نظام الحكم، فيما يعرف بنظرية" العصبية "عند "**ابن خلدون** ."

هذا علاوة على اهتمامه بمعالجة الظواهر الاقتصادية، و تحليله لأهم القضايا و المشكلات المرتبطة بها، بالإضافة إلى الكثير من مسائل التربية و التعليم، و من هنا تعتبر مقدمة ابن خلدون بحق عملا موسوعيا قدم لنا فيه صورة بانورامية كاملة للحياة الثقافية و السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية في المجتمع العربي – الإسلامي الوسيط .و هذا ما جعل العديد من العلماء يعترفون صراحة بقيمة كتابات" **ابن خلدون** "وتأثيرها على تحليل قضايا سوسيولوجية هامة لا تزال تشكل اهتمامات العديد من علماء الاجتماع والتاريخ والسياسة و الاقتصاد و الأنثربولوجيا و غيرهم، إلى المدى الذي أصبح هناك اعتراف عالمي الآن بدور" **ابن خلدون** "في الدعوة إلى إنشاء علم الاجتماع

رغم الدور الريادي الذي لعبه" **ابن خلدون** "في تأسيس علم الاجتماع إلا أن أعماله لم تخل من المؤثرات الإيديولوجية، ففي هذا الصدد اختلفت قراءات النقاد لأعماله، حيث صنف ضمن **نموذج الصراع،** فاعتبر مفكرا ماديا، بل رائدا للتحليل المادي التاريخي، كما صنف ضمن **نموذج التوازن،** فاعتبر محافظا،سخر جل أبحاثه لتبرير شرعية السلطة القائمة وتكريس هيمنتها.

بالاعتماد على النموذجين التالين يتضح ما سبق :

يلخص **أحمد الزعبي** نظرية" **ابن خلدون** "في التغير الاجتماعي، مبرزا عامل الصراع فيهاوذلك على النحو التالي :

- الإنسان مدني بالطبع .
- تنجم هذه الحاجة عن حاجة مزدوجة للكائن البشري :الغذاء والمدافعة .
- إن الله هو الذي كون الإنسان على هذا النحو(الحاجة – الاجتماع)
- يحمل البشر بقايا من تكوينهم الحيواني السابق هي :العدوانية
- وإذن فلا بد من وازع يحميهم من أنفسهم وله سلطة القهر .
- ولكن مسألة من سيكون الحاكم ومن سيكون المحكوم استلزمت ظهور" العصبية "ابتداء من صلة الرحم وانتهاء بالرابطة المعنوية.
- ومن واقع هيمنة عصبية قوية على بقية العصبيات الأخرى ضمن مجموعات جغرافية وإثنية ولغوية وثقافية محددة ظهر" الملك."
- وبما أن القوة عنصر لازم ولكن غير كاف للملك، فكان لا بد من رابط إيديولوجي أعم من الروابط العصبية، فكانت" السياسة "و كان" الدين."

- تنطلق هذه العملية من البادية القاسية الفقيرة باتجاه المدينة حيث الرفه والغنى...هذا يعني أن غاية البدوي المدينة، وغاية العصبية الملك .
- هذه الحضارة تحفر قبرها بيدها بواسطة معولي الترف والظلم، وهكذا تؤول الحضارة والدولة إلى الموت المحقق على يد عصبية جديدة ما تزال تحتفظ بعناصر شبابها، تتكرر هذه العملية كل حوالي مائة عام .

في مقابل ما سبق، يصنف"" **علي عبد الرازق جلبي**" "**ابن خلدون** "ضمن التيار المحافظ حيث يقول:

حقيقة أن" **ابن خلدون** "نادى بضرورة إنشاء علم جديد، وأبرز بعض ملامح المنهج العلمي وأسس البحث في هذا العلم، إلا أن انتمائه الأسري والطبقي وما أحاط به من ظروف جعلته قريبا من السلطة السياسية فكرا وممارسة، الأمر الذي كان من شأنه أن يعد علم الاجتماع عنده عن أداء وظيفته الثورية في المجتمع، وأن مال نحو المحافظة على السلطة والظروف والأوضاع السائدة، ويعتبر التغيير ضد طبائع العمران الذي يسيرتلقائيا دون تدخل ودون ترشيد

ويؤيد هذا الرأي" **عبد الباسط عبد المعطي** "حيث يقول" "**:فابن خلدون** "وكذلك" **دوركايم** "من بعده استبعدوا أي حركة ترمي إلى قلب النظام، الشيء الذي جعل الاتجاه الفكري للعلم لديه اتجاها تبريريا، وكل منهم أراد بالبحث في القوانين الاجتماعية الثابتة المشابهة للقوانين الطبيعية خنق العمل الاجتماعي لاسيما فيما يتعلق الأمر بتغيير النظام القائم .ويقدم الباحث جملة من الأدلة التي تدعم موقفه نلخصها فيما يلي:

- اعتبر" **ابن خلدون** "أن تطور المجتمع يسير وفق قوانين ثابتة لا تتغير هي أشبه بقوانين علم الحياة، فحياة المجتمع كحياة الكائن الحي لا بد أن يضعف ويزول وينحل ثم ينتهي بالموت قطعا، وفي هذا دعوة صريحة وضمنية للامتثال لهذه القوانين وقبولها مادامت قوانين حتمية وملزمة.
- هام" **ابن خلدون** "بالسلطة السياسية فأكدها ودعمها فكرا وعملا لأنه ينظر إلى السلطة السياسية نظرته إلى عامل أساسي وهام في تطور المجتمع وانتقاله من حال إلى حال.
- يترتب على النقطتين السابقتين خنق العمل الاجتماعي والحركة الاجتماعية، فالمجتمع يسير وفق قوانين لا تتغير والمحكومون عليهم طاعة الحاكم، والسلطة السياسية تعلو فوق كل شيء، بل تكاد تصل حدالألوهية فوق المجتمع والإنسان.

يتضح مما سبق :

على الرغم من موضوعية هذه الآراء واعتمادها على الأدلة والشواهد إلا أننا لا نتفق معها لعدة أسباب:

1. صحيح أن" **ابن خلدون** "قد قدم تفسيرا ماديا لحركة المجتمع الإنساني من حيث تركيزه على أولوية العوامل الاقتصادية، غير أن هذا التفسير لا يمكن مقارنته بأي شكل من الأشكال بالتفسير الماركسي،

ذلك أن الصراع في التصور الماركسي يقوم داخل المجتمع الواحد بين طبقتين، إحداهما مستغلة والأخرى مستغلة، يفضي هذا الصراع إلى هدم المجتمع القائم وإقامة مجتمع آخر على أنقاضه يختلف عنه من حيث بنيتيه التحتية والفوقية، في حين أن الصراع في التصور الخلدوني قائم بين البدو والحضر، أي بين مجتمعين مختلفين تماما من حيث أسلوب الحياة، وطبيعة البناء الاجتماعي ونوعيةالعلاقات الاجتماعية ودرجة التحضر...، والصراع بينهما لا يقوم على الاستغلال الطبقي واختلاف المصالح الاقتصادية، وإنما هو صراع سياسي بالدرجة الأولى، يهدف إلى امتلاك الأرض و توطيد أركان الدولة هذا فضلا على أن الانتقال من البداوة إلى الحضارة لا يقوم على أساس هدم المجتمع البدوي وإقامة المجتمع الحضري على أنقاضه، كما تنص على ذلك قوانين المادية التاريخية، بل هو المجتمع البدوي نفسه وقد تشرب قيم الحضارة واستدمج معاييرها .مثل هذا الاستدماج الذي يأتي تدريجيا وليس طفرة واحدة .وإذا كان ماركس قد دعا إلى الصراع ودافع عن مشروعيته باعتباره معول التقدم وسلاح الطبقة المقهورة لاسترجاع حقوقها، فإن" **ابن خلدون** "لم يكن أبدا راديكاليا بهذا المعنى، ولم يدع يوما إلى الصراع والثورة بقدر ما شخص واقع المجتمع العربي في تلك المرحلة التاريخية.

2. إذا كان" **ابن خلدون** "لم يدع يوما إلى التمرد على السلطة السياسية، فإن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أنه كان محافظا برر شرعية السلطة القائمة ودافع عن مشروعيتها، لأننا نعتبر أن دور عالم الاجتماع ليس الدعوة إلى التغيير والثورة، ولا إلى الاستقرار والنظام، بقدر ما هو وصف وتشخيص وتفسير الواقع الاجتماعي كما هو دون محاولة توجيهه أو إخضاعه لأية أهداف إيديولوجية راديكالية كانت أو محافظة.

لهذايمكن القول ان فكر" **ابن خلدون** "راديكاليا على طريقة" **ماركس**"، ولا محافظا على طريقة" **كونت**" **و**"**دوركايم** " **و**"**فيبر** "وغيرهم من علماء الاجتماع المحافظين، لقد كان فكرا موضوعيا إلى حد كبير، اتصف بالدقة والحياد، والاحتكام إلى الواقع وتقديم الأدلة والبراهين العقلية، وإن كان لم يخل من مؤثرات إيديولوجية دينية طبعت منطلقاته وتركت بصماتها على آرائه وتحليلاته.

ملاحظة : للاطلاع اكثر يمكن العودة الى المراجع التالية :

1. محمد أحمد الزعبي"و آخرون :"الفكر الاجتماعي الخلدوني(المنهج و المفاهيم و الأزمة المعرفية
2. علي عبد الرازق جلبي :قضايا علم الاجتماع المعاصر، دار النهضة العربية، 18
3. رسالة ماجستير : تدريس علم الاجتماع بين العلم و الايديواوجيا :يعيش وسيلة ،